وعلى الرغم من هذا التناسى لأخطر الأشياء فى التشكيل الجمالى للنص الأدبى تظل رؤية (إليوت) كاشفةً عن طبيعة التزاوج الثقافي وضرورته على كل المستويات الفردية والجماعية .. وكذا على المستويات الزمنية بين ماض وحاضر أو - بمعني أدق - بين ذاكرة الماضى التراثي والتى تعد من أغلى ممتلكات الشاعر ، وبين عبقرية الحاضر التى تتجسَّد وتتجدَّد فى موهبته الفردية ، وكأنه بذلك يحمى دور « الأنا » من الضياع ، في نفس الوقت الذى يرتد فيه إلى التراث فى محاولة جادة للاعتراف بإحياء الذاكرة ، ضمانا لاكتساب الأصالة - او استمراراً للتواصل ، دون تورط فى مناطق العزلة أو الانقطاع الذى يؤثر - بالضرورة - فى كيان الفنان وفنه معا .

ولم يكن بعيدا عن تصور إليوت ما انتهى إليه ( روبرت بن وارين ) في تحليله للشعر باعتبار تفاعلاته الداخلية فحسب ، فهو « يعتمد على مجموعة من العلاقات ، على البناء الذي ندعوه قصيدة »[1] .

وعندئذ يمكن حصر وظيفة الناقد فى حدود التمُّعن فى استجلاء خفايا تلك العناصر من حيث علاقاتها المتداخلة على افتراض أن المعنى يتكون من قضايا الشكل (الوزن والصورة والعرض إلى غير ذلك ) ، ومن قضايا المحتوى ( الواقع والفكرة وما إليهما ) ، حيث تعمل كلها معا فى سياق منظومة متكاملة دون انفصال بينها ، وإلاَّ ظلَّ من حقنا - طبعا - أن نتأمل هزال الرؤية حين تفصل بهذا الشكل القطعى بين شكل العمل ومضمونه .

ومن هنا - أيضا - ظل التواصل الفكري وارداً فى تصوُّر أصحاب التنظير النقدى علي مستوى النظريات المختلفة المتباعدة زمنيا منها ، والمتزامنة على السواء ، فإذا بالواقعية تلتقط الأطراف الإيجابية مما سبقت إليه فى النظريات الأولى فى محاولة لتوفيق العناصر وضبط تفاعلاتها وتداخلها دون الاقتصار على تلفيقها أو جمع شتاتها وأشلائها ، ، ومن ثَمَّ ظلت للرؤية التراثية مكانتها ، وعُدَّت قاسما مشتركا بين البيئات والنظريات مما لايمكن تجاوزه أو إغفاله مطلقا ، ظلَّت بذلك أصلا من أصول الفكر النقدى من ناحية ، والمنطق الإبداعي من ناحية أخرى ، وظلت ذاكرة الشاعر والنقاد فى حاجة إلى مزيد من المخزون الفكرى الطويل الذى يعد شاهد إثبات على استيعاب الماضى ، ودليلا على حركة الحاضر بين ثباته وتحوُّله من خلال الشرائع المختارة كموضوعات للأعمال الفنية .

(١) خمسة مداخل إلى النقد الأدبى ١٩٦ .